نحو عالم جديد :

أندريه مالـــرو

André Malraux

فنه وتفكيره

للاســـتاذ على كامل

لعل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديباً يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسي الشاب أندريه مالرو . وهو من هذه الناحية ومن حيث تأثير فنه على عقلية شباب هذا الجيل الذى نعيش فيه يقف إلى جانب الكاتب الكبير أندريه جيد . إلا أن كلا منهما يتميز من حيث المشكلة التى يطرقها ويسعى لحلها . فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التى يعتبرها مشكلة المشاكل، بينما يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكملها ، بكامل غرائزها ساعياً لتحديد موقفها فى هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات .

كان أندريه مالرو منذ ابتداء حياته الأدبية كاتباً اجتماعياً لايستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمع الذى يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله . كان ألد عدو لذلك النفر من الأدباء الذين اتخذوا من خيانة الفكر مذهباً أسموه (الفن للفن) أو (البرج العاجى) يقبعون فيه غير عابئين بما يدور حولهم من مآسى الحياة ونكباتها حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق الحياة المحزنة الدامية تشويه « لجمال » فنهم ! ! ؟ إن هذه الزمرة من الأدباء فى نظر مالرو ونظرائه من الأدباء الاجتماعيين ما هى إلا طائفة من المرائين الذين اتخذوا القلم سلماً للوصول والنفعية ، وهم قبل كل شىء يعملون — بوعى أو بغير وعى — لخدمة مصالح الطبقات المميزة فى المجتمع الإنسانى ، وهذه الطبقات لا يهمها معالجة مشاكل الحياة القاسية لأنها لا تعانى ويلاتها بل من مصلحتها — إذا لمحتها فى طريقها — التغاضى عنها وتعمد تجاهلها ؛ لأن أنانيتها لا تتفق وافتضاح الخلل فى المجتمع الذى تعيش على حساب تعاسته ، وتصعد قمة المجد على جماجم شهدائه

على أن مالرو لم يقتصر على استخدام قلمه لخدمة المجتمع الانسانى، بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادئ السامية التى يؤمن بعدالتها . فلم تكد تنشب ثورة الصين التحريرية حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين فى سبيل المثل الأعلى الذين يدافعون عنه . وعندما قامت الثورة الاسبانية الجمهورية بادر بالسفر إلى أسبانيا ليعمل فى جيوش الجمهورية الثائرة كطيار مدافعاً عن سماء مدريد الشهيدة . وأخيراً لم تكد تحرر فرنسا على ركبتيها عام ١٩٤٠ صريعة الخيانة حتى عاد مالرو إلى حياة الكفاح العملى فأبى أن يهجر وطنه فى محنته وانضم إلى العصابات الفرنسية الداخلية ليكافح الغاصب . وعلى رغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلمه وهو سلاحه الأول للتعبير عن تفكيره فاشتغل فى كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان : (الصراع مع الملاك) La Lutte avec L' Ange وانتهى من الجزء الأول وهو (أشجار التنبرج) لـ Les Noyers de Altenburg الذى نشر فى سويسرا عام ١٩٤٣

* * *

كانت أول أعمال مالرو إصداره كتاباً صغيراً بعنوان: (إغراء الغرب) La Tentation de L' Occident وهو عبارة عن رسائل يقارن فيها الكاتب بين المدنيتين: الشرقية والغربية ، ونحس حين قراءتها بأله وخيبة آماله فى مدنية الغرب . وسرعان ما لفت هذا الكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذى أحس النقاد بنواحى التجديد فى تفكيره وما يختزن فى صدره مما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمى . وفى عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثانى الفاتحون Les Conquérants وهو أقرب إلى تحقيق صحفى منه إلى قصة . وفى عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث (الطريق الملكي) La voie Royale . وفى عام ١٩٣٣ أخرج مالروقصته : (الطبيعة الإنسانية) La Condition Humaine التى نال بها جائزة جونكور لذلك العام ؛ وهى أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية .

وتفكير مالرو الذى يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه الفاتحون ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه فى (الطبيعة الإنسانية) . كانت هاتان القصتان حدثاً جديداً فى الأدب الغربى

إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصى مشاكل المدنية الغربية بالطريقة التى عالجها بها مالرو فى هذين الكتابين ، وسار على نهجهما فى كتبه التالية ؛ وذلك من حيث التجديد فى الفكرة وحرارة الأسلوب وطهارة الإخلاص .

يرى مالرو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل « بطبيعته » إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيطه من المجهول ، وكانت الأديان أقوى وسيلة لتهدئة هذا الجموح الطبيعى وإطفاء هذا الغليان الغريزى ، وظل تأثيرها قوياً المفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عديدة . ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة لا احترام فيها للعقائد ولا مراعاة لسنن الأديان ، بل ولا اعتبار للأسس التى قامت عليها هذه المدنية التى أوشكت أن تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك فى قيمتها . الآن ، ما هو موقف (الإنسان) و(النفس الإنسانية)؟ ما هو موقف الفرد الأوروبى أو غير الأوروبى إذا كان من أبناء المدنية الحديثة المتأثرين بتياراتها المتحررين من كل قيد تقليدى ؟ يرى مالرو أن الإنسان الجديد يقف أمام أحد أمرين لا ثالث لها : فإما الاستسلام للأمر الواقع والتردى فى هذه الفوضى الناشئة التى لا ضابط لها ولا حياد فيها ؛ وإما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشرى كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة .

أما الأمر الأول فهو طريق الضعفاء فضلا عن أنه لا يتضمن جمال الإحساس بالقيام بعمل سام جميل . وأما الأمر الثانى فهو الطريق السوىّ الطبيعى لذوى النفوس العالية ، والإنسانية الواسعة ، وهو الطريق الذى اختاره أندريه مالرو لأبطاله مصوراً حياتهم وطريقة تفكيرهم ، وضروب تضحيتهم وسمو إيمانهم . فنرى (جارين) فى قصة (الفاتحون) و(كيو) فى قصة (الطبيعة الإنسانية) شخصيتين من تلك الشخصيات التى لا تستطيع الخضوع لحياة لا غرض لها إلا قضاء أيام متشابهة مملة . فهما يعانيان ذلك المرض الذى لا يختلف كثيراً عن المرض الذى يسمونه مرض القرن والذى — كما يرى مالرو — هو بالنسبة لفئة من الناس مرض جميع القرون ... إن هذه الدنيا لا تكفيهم . إنها لا قيمة لها إذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحى الكفاح والنشاط فيهم . إن حياتهم لا مبرر لها ولا قيمة إذا لم يحققوا للانسانية أفكاراً سامية .

ولما كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبعثها الظلم الاجتماعى وعلاجها إيجاد مجتمع بشرى تسوده العدالة الاجتماعية والأخاء الإنسانى . لهذا تعمد مالرو اختيار أبطاله من رجال المثل العليا فى السياسة والاجتماع . فإصلاح المجتمع فى نظره وتسييره فى الطريق الذى تفرضه روح العصر هو الأساس الذى بغيره لا يرجى إصلاح فى العلم أو الفن أو الأدب أو الأخلاق أو غيرها .

كان (جارين) ثائراً على كل شىء . كان ثائراً على المجتمع ، كان ثائراً على الغرب وماديته فهجره إلى الصين حيث الملايين الحاشدة ينشر بينها تعاليمه الاشتراكية ويبين لها حقها فى الحياة . كان ثائراً على الدين لأن الأديان فى نظره كانت دائماً على مر القرون هى الميناء الذى تهدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جموحها . كانت العزاء والملاذ الأخير لكل منكوب (إذ كيف يمكن لمصاب بالبرص — كما يقول — أن يستسلم لمصيره ولا يسم الآبار التى يقترب منها إذا لم ينبض قلبه بالأمل فى حياة ثانية حيث تعوّضه العدالة عن مصيبته وينال النعيم الأزلى ؟) .

فجارين يريد أن يعيش واقعياً بكل ما فى هذه الكلمة من معان . إنه يريد أن يحقق الجنة الأرضية لأنه مثالى يؤمن بالمثل العليا ويوقن بامكان تحقيقها بالجهاد والتضحية . إنه يستهين بالمخاطر ويواجه الموت إلى جانب الأحرار الصينيين فى ثورة كنتفرن راضياً مطمئناً . ومثل شخصية جارين نرى شخصية (كيو) وشخصية الطالب (تشن) فى قصة (الطبيعة الإنسانية) . هذين الشابين الصينيين اللذين آمنا إيمان المؤمن بدينه بعدالة قضية الصين فى جهادها التحريرى . هذه الشخصيات الثلاث نراها جميعاً تلقى بنفسها فى ذلك المحيط الثورى بقوة عنيفة ودافع خفى مستعذبين كل تضحية ؛ لأن المثل الأعلى عندهم دين كسائر الأديان ، والدين فى حاجة إلى شهداء . ومن ذلك نرى أن أندريه مالرو لا يعتقد أن هناك فرقاً بين هؤلاء المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الأوثان وأقصى آمالهم فى الحياة أن يتعذبوا من أجل عقيدتهم الدينية . فتصوير هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين هو أهم ما يطبع كتب مالرو بطابع القوة والعظمة .

وللقارئ أن يتساءل لم اختار مالرو حوادث قصته (الفاتحون) و (الطبيعة الإنسانية) فى الصين الثائرة كما ذكرنا . أليس فى بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد فى غير الصين

مجالا لظهور الأبطال وأعمال البطولة ؟ إن مالرو العالمي التفكير يتبع النهضات القومية أينما هبت . فكما اشترك بنفسه في كفاح الصينيين القومي مما أوحى إليه كتابة قصتيه هاتين ، كذلك حارب في صفوف الجمهوريين الأسبان كما عرفنا ، وكتب عن الجمهورية الشابة قبل أن تئدها الرجعية الفاشية كتابه المشهور (الأمل) Espoir (١٩٣٧) . لقد وجد مالرو في هذه البلاد الحية بحركاتها الشعبية مجالا خصباً لذلك النوع من الأبطال الذين اختارهم لقصصه . فهو يرى أن العالم الغربي أصبحت تسوده للأسف الوطنية المتعصبة . فالحدود مغلقة ، والمادية تطغى على كل شيء ، والفردية يلمسها المرء أينما حلّ . فأوروبا الحاضرة في نظر مالرو لم يعد فيها إلا نوعان من الكفاح : الأول كفاح العالم الذي يفني السنين في اكتشاف علمي وهذا الأمر ليس في متناول غير العلماء المتخصصين ، والثاني كفاح رجال الأعمال لتكوين الأموال مما صبغ الحياة كلها بالمادية البذيئة التي لا تعرف الرحمة . أما هناك ، هناك في الشرق البعيد حيث ألّف بين الناس البؤس المشترك والشقاء العميم ، حيث وحّد بين قلوب الملايين الغفيرة الإيمان القوي والقلق العام والحساسية المرهفة ؛ هناك الحقل اليانع لأصحاب المبادئ السامية والمثل العليا الجريئة التي سرعان ما تتشبث بها الجماهير وتتفانى في خدمتها بمجرد إحساسها بأنها طريق الخلاص ، واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبعثه بعثاً جديداً .

* * *

ولقد كانت في الحرب الحاضرة ومحنة فرنسا مادة غزيرة أمام أندريه مالرو لدراسة الشخصية الإنسانية في ظروف جديدة وأماكن غير الأماكن التي وقعت فيها حوادث قصصه السابقة . فكتب كتابه الأخير (أشجار التنبرج) وهو كما ذكرنا الجزء الأول من قصة طويلة في ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) .

و (أشجار التنبرج) عبارة عن ثلاثة أقسام : القسم الأول تقع حوادثه في يونية عام ١٩٤٠ في أحد السجون في بلدة شانز بفرنسا . وفي القسم الثاني يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الأولى فنعرف منه أن والده الزاسي المولد بقي في الأزاس حتى عام ١٨٧٠ ثم عين مدرساً في جامعة استانبول واختير بعد ذلك مستشاراً للجنرال أنور باشا ، ثم أرسل في مهمة إلى أفغانستان وبعد سنين طويلة في تلك البلاد الشرقية يعود إلى وطنه الأزاس حيث يموت والده (جدّ الكاتب) بعد وصوله بفترة قصيرة . وفي الأزاس يشترك في (أحاديث التنبرج) وهي أحاديث تدور على موضوعات معينة في كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه (والتر) نخبة من المثقفين والعلماء والأساتذة من مختلف البلدان ، وفي عام ١٩١٥ تقوده الحرب إلى جبهة الفستولا ، حيث يشترك في هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مغشياً عليه في ساحة القتال ؛ منهك القوى أثر المناظر الوحشية التي شاهدها ومن تأثير الغاز . يتركه ليعود إلى نفسه ، وعندئذ يبدأ القسم الثالث من القصة فنرى أنفسنا في عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف في سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذي يخرجون منه بأعجوبة فينظرون إلى العالم تحت ضوء فجر جديد لامع ، وبعيون جديدة ، عيون نسيت الماضي ولم تعد تعرف غير الحاضر . وهنا تنتهي قصة (أشجار التنبرج) أول جزء من قصة (الصراع مع الملاك) .

ومنذ بداية هذه القصة أيضاً في ذلك السجن الموحش المعزول عن العالم الخارجي ، نرى أندريه مالرو يعود إلى موضوعه الرئيسي وشاغله الأول في كل ما كتبه وهو (الإنسان) ... اسمعه وهو يقول : (منذ عشر سنوات لا يشغلني ككاتب غير موضوع واحد هو الإنسان . ذلك هو الموضوع الأسامي في فني) . وهذا الشاغل نلمسه يتملك والده أيضاً حين يقص علينا مالرو حياته ويروي لنا (مقابلاته) مع الإنسان ، وهي مقابلاته الشخصية مع الموت والقسوة الانسانية والقدر الغامض . يقول والده : (إن اللغز الأكبر ليس في أنه ألقي بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب . بل إننا ونحن في هذا السجن كنا نستمد من أنفسنا سوراً قوية لتكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لا وجود لها) وهذا اللغز هو ما تريد (أحاديث التنبرج) أن تكشفه . فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة . هل يمكن إيجاد تحديد معين لمعنى كلمة إنسان ؟ (إن الإنسان بمعناه الحقيق ما هو إلا أسطورة . هو حلم في ذهن المفكر) . فما الذي نعرفه عن الإنسان ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئاً (فحتى الثقافة لا تعلمنا شيئاً عنه . إنها تعلمنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ما هو عليه من ثقافة) إننا نعرف